جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
بإيتاي البارود

"ماكُنَّات القرآن الكريم"

مواقعها وأسرارها البلاغية

الجزء الأول

الأستاذ الدكتور

أحمد سعد ناجي

أستاذ البلاغة والنقد
وعميد كلية اللغة العربية بإيتاى البارود

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً. أنزله تبياناً وتفصيلاً لكل شئ هدى ورحمة وبشرى للمسلمين حلالاً وحراماً. أمراً ونهياً. محكماً ومتشابهاً.

بالحق أنزله وبالحق نزل للعلماء منه نصيب ولغيرهم نصيب ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ والصلاة والسلام على مفتاح السعادة وحامل أسباب السيادة أفصح العرب لغة وبياناً، وأصدقهم لهجة ولسانا. وعلى آله وصحبه أولى الأحلام والنهى ومصابيح الدجى هم البدور الزاهرة والأقمار النيرة.

وبعد: فإن أولى العلوم بالتعلم وأحقها بالعناية والفهم كتاب الله تعالى أجل الكتب وأعلاها قدراً وأسداها فائدة وأحراها بالقبول. تقف النفوس عند إعجازه ليبهرها إعجازه وتتملى حقيقته فتزداد إيقاناً بجمال لغته وبراعة تراكيبه ودقة معانيه وألفاظه.

والموضوع الذي نحن بصدده: إنما هى فكرة غيرها كثير في القرآن الكريم، وإن المتصفح لهذا الكتاب العظيم ليرى فيه أفكاراً متدفقة تصلح كل فكرة من هذه الأفكار أن تقيم بحثاً يستفاد به في دنيا

الناس ودينهم وأخراهم، وفكرة هذا الموضوع قـد راودتنـي كثيـراً لدوران مادتها في القرآن الكريم دوراناً يقيم بحثاً إن شاء الله تعالى.

أولاً: إن البحث عن أسرار القرآن الكريم من أهـمِّ مقاصد النفس لإبراز خبيئات المعاني والألفاظ فيه ودقَّة النظم الجامعة لهما.

ثانيـاً: تنوَّعـت أساليب "ماكنات القرآن" حسب مقاماتها، ولكـل تنوع من هذه الأساليب غرض يرمى إليه فأردت كشف ذلك وبيانه.

ثالثاً: إن من هذه الأساليب ماكان خاصاً به (ﷺ) خطابـاً لـه أو تحدثاً عن نفسه مما يحتاج إلى بيان سـره وغرضه.

رابعاً: من هذه الأساليب ماجاء حديثاً عمـن سبق من الرسل الكـرام (عليهم السلام) أو غيرهم وإن كان في مضمونه العام مخاطباً به الرسول (ﷺ) لابد من تحقيق مراميه وتوضيح مقاصـده.

خامساً: لهذه الأساليب لفتاتها وانتقالاتهـا دون ماجـاء مجـرداً بنحو"ما كان" و"ماكنا" التي وردت كثيراً في القرآن سيكون لها بحـث مستقل إن شاء الله تعالى وهو الجزء الثاني لهذا البحث.

وقـد جاء البحث في **مقدمة وتمهيد وثلاثـة مباحـث. الأول:** وتحته ستة مقامات، **الثاني:** وجاء تحته ثلاثـة مقامات، **الثالث:** وفيه أربعة مقامات، **وخاتمة** تضمنـت أهم النتائج وفهارس فنية.

التمهيد

وتحته أمران:

الأول: مفهوم "الماكُـــنات" وهل يدخل فيها "ما كان" ونحوها.

معلوم أن التعبير بعبارة "ماكنت" في القرآن الكريم جـــاءت فـــي أكثرهـــا مفتوحة مخاطبة لرسول الله (ﷺ) إلا في موطن واحـــد فـــي ســـورة "ق" فـــي مخاطبة الله تعالى للإنسان الغافل عن تذكر الموت وحضوره فخاطبه الله تعالى ناعياً حاله لتكون العبرة من حاله أقوى والموعظة أزجـــر.

وجاءت مضمومة في ثلاثة مواضع في خطاب الله تعالى للبشر بأنـــه مـــا استعان بأحد منهم لشهادة ماخلق وأنه لم يعضد قوته بقوة أحد من المخلوقات في سورة الكهف والآخر في حديث بلقيس بنت تبع سيدة اليمن مع أمرائها وســـادة قومها بعد أن ألقى الهدهد الكتاب على سرير عرشها مبينة أنها لن تقطع أمـــراً حتى ترى رأيهم وتسمع نصيحتهم فى سورة النمل.

والثالث فى حديث رسول الله (ﷺ) وأنه لم يكن بدعاً من الرسل ولامخترعاً لرسالة جديدة وأن ماجاء به هو وحى أوحاه الله إليه فلم تكن ترهاتٍ من عنديات نفسه ولا من بنيات أفكاره وذلك فى سورة الأحقاف.

وعبارة "ماكنت" التي دارت في القرآن الكريم دوراناً كثيراً جاء النـــصيب الأكبر والحظ الأوفر في خطابه (ﷺ) في سياقات الحديث عن الأنبياء الـــسابقين ــ عليهم الصلاة والسلام ــ ولكنا سنتناول دراستها من خلال هـــذه الـــسياقات تحت مقامات خاصة بمواطنها مع تجلية أسرار النظم فيها وسيكون هذا التنـــاول لهذه العبارة دون سواها وهى التي تكونت من "ما" و"كان" و"التاء المسند إليهـــا وترك الحديث عن "ماكان" ونحوها مثل "ماكنا" "ماكنتم" إلخ لتناولها فـــي بحـــث

خاص بذلك إن شاء الله تعالى سيكون لاحقاً لهذا البحث ومتمماً لجوانبه ليكتمل هذا التركيب القرآن في نسق خاص بتلك الأساليب.

الثاني: الحديث عن تركيب المفهوم "ما" و "كان" و "التاء".

أ- "ما"

حرفية مفيدة النفي وهى إن دخلت على الجملة الاسمية أعملها الحجازيون والتهاميون والنجديون عمل ليس بشروط معروفة نحو ﴿...مَا هَٰذَا بَشَرًا...﴿٣١﴾﴾(١) ونحو ﴿...مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ...﴿٢﴾﴾(٢) وعن عاصم أنه رفع "أمهاتهم" على التميمية، وندر تركيبها مع النكرة تشبيهاً لها بلا كقول الشاعر:

وما بأس لوردت علينا تحية ** قليلُ على مَنْ يعرفُ الحقَّ عابها

وإن دخلت على الفعلية لم تعمل نحو ﴿...وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ...﴿٢٧٢﴾﴾(٣)، أما قوله: ﴿...وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ...﴿٢٧٢﴾﴾(٤) و﴿...وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ...﴿٢٧٢﴾﴾ (٥)، فما فيهما شرطية بدليل الفاء في الأولى والجزم في الثانية أي جزم الجواب بل والمعنى، وإذا نفت المضارع تخلص عند الجمهور للحال ورد عليهم ابن مالك

---

(١) يوسف/٣١.

(٢) المجادلة/٢.

(٣) البقرة/٢٧٢.

(٤) البقرة/٢٧٢.

(٥) البقرة/٢٧٢.

بنحو ﴿...قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ...﴿١٥﴾﴾(١) وأجيب بأن شرط كونه للحال انتفاء قرينة خلافه أي وإن قرينة الاستقبال، وأجيب أيضاً بأن التقدير: قصدُ أن أبدله فالقصد حال والتبديل مستقبل ولك دفع أصل الإيراد بأن المعنى مايسوغ لي الآن أن أبدله فى المستقبل أي أن التبديل المستقبل ممنوع من الآن(٢).

ب- كان.

نواسخ الابتداء ثلاثة أقسام: منها ما ينسخ الرفع في الجزأين كظن، ومنها ما ينسخه في الأول دون الثاني كإن، ومنها ما ينسخه في الثاني دون الأول ككان، ونرى النحاة يبدأون كلامهم دائماً بالحديث عن " كان " لبقاء المبتدأ الذي هو العمدة فيه على مثل إعرابه، ثم بالحديث عن "إن" لبقاء شئ من حكم الابتداء فيه، ثم بالحديث عن ظن" لبطلان حكم الابتداء فى إعرابه قال صاحب الألفية:

ترفع "كان" المبتدأ اسماً والخبر "تنصبه كـ "كان" سيداً عمر(٣).

وكان وأخواتها هى العاملة في المبتدأ والخبر فترفع المبتدأ لشبهه بالفاعل ويسمى اسمها وهو مذهب البصريين، وذهب الكوفيون إلى أنها لا تعمل في المبتدأ شيئاً وإنما هو مرفوع بما كان مرفوعاً به قبل دخولها، وقد خالفهم في ذلك الفراء، وتنصب الخبر لشبهه بالمفعول وهو مذهب البصريين أيضاً، وقال الكوفيون، بل نصبه على الحال، وذهب الفراء إلى أن نصبه على التشبيه

(١) يونس/١٥.

(٢) مغنى اللبيب ٦/٢ ط دار إحياء الكتب العربية البابي الحلبي القاهرة.

(٣) الألفية في النحو والصرف لابن مالك الأندلس/١٩ ط مصطفى البابي الحلبي القاهرة سنة ١٩٤٠م.

بالحال، والصحيح ما ذهب إليه البصريون، لأن الخبر قد يحذف، ولأنه يكـون معرفة وجامداً ولا يستغنى عنه بخلاف الحال، وكان وأخواتها تعمل بـلا قيـد فتعمل في الإثبات نحو ﴿ ...وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾(١) إلخ، وبعد النفي نحو ﴿ ...وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ (٢).

وتسمى هذه الأفعال ناقصة لعدم اكتفائها بالمرفوع وهذا هو القول الراجح، ويرى الفارسي، وابن يعيش أن النقصان لاحق لـ "كان وأخواتها" مـن جهـة نقصان دلالتها عن دلالة الفعـل الحقيقي، فإن الفعل الحقيقي ما تضمن الدلالـة على معنى وزمن، وكان وأخواتها إنما تدل على الزمن فحسب ومن هنا كانـت ناقصة(٣) فما يكتفي منها بالمرفوع سمى تاماً ككان بمعنى وجد، ومنـه قولـه تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ... ﴿٢٨٠﴾ ﴾(٤)، وما عداه سـمى ناقصاً كفتئ، ليس، زال فالنقص ملازم لهذه الثلاثة.

---

(١) النساء/٩٦.

(٢) الأنفال/٣٣، شرح التصريح على التوضيح ١٨٤/١ ط دار الفكر بيروت، حاشية الصبان على شرح الأشموني ٢٧٣/١ ط دار الفكر بيروت، همع الهوامع للسيوطي١١١/١ ط دار المعرفة للطبع والنشر بيروت، إرشاد السالك إلى حل ألفية ابن مالك لابن القـيم ت د. محمد بن عوض السهلي ط الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ٢٣٣/١ ط أولى سنة ٢٠٠٩ م.

(٣) شرح المفصل لابن يعيش ٨٩/٧، ٩٠ ط عام الكتب بيروت، المسائل العسكرية لأبـي على الفارسي/٩٦ والشاطر ط المدني ط أولى سنة ١٩٨٢م.

(٤) البقرة/٢٨٠.

جـ "التاء".

التاء المفردة محركة في أوائل الأسماء ومحركة في أواخرها ومحركة في أواخر الأفعال ومسكنة في أواخرها فالمحركة في أوائل الأسماء حرف معناه القسم وتختص بالتعجب وباسم الله تعالى، والمحركة في أواخرها حرفُ خطاب نحو أنت وأنتِ والمحركة في أواخر الأفعال ضمير نحو قمتُ وقمتَ وقمت، والتاء الساكنة في أواخر الأفعال حرف وضع علامة للتأنيث كقامت، وهى ضمير بارز بأن يكون له صورة في اللفظ، وهى ضمير بارز متصل لأنه لا يفتتح به النطق ولا يقع بعد إلا أو لا(١).

(١) مغنى اللبيب ١٠٦/١.

المبحث الأول

المقام الأول: الحديث عن مريم (عليها السلام)

قال الله تعالى حاكياً قصة مريم (عليها السلام) بعد أن ذكر اصطفاءه سبحانه لها وتطهيرها وأنها مفضلة على من سواها، وندائها بالقنوت والسجود والركوع للمتفضل عليها بكل ماسبق، وأنه (ﷺ) لم يكن موجوداً حين حدث ما أراد الله إعلامه إياه، وأنه (عليه السلام) لم يكن موجوداً حين حدث ما حدث. فقال (سبحانه وتعالى): ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾(١).

النظم البلاغي:

قوله تعالى: (ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ) إشارة إلى ماسلف من الأمور البديعة ومافيه من معنى البعد للتنبيه على علو شأن المشار إليه وبعد منزلته فى الفضل وهو مبتدأ وخبره، والمعنى: إن الذي مضى ذكره من حديث حنة و زكريا و يحي وعيسى بن مريم، إنما هو من إخبار الغيب فلا يمكنك أن تعلمه إلا بالوحي، فإن قيل: لم نفيت هذه المشاهدة، وانتفاؤها معلوم بغير شبهة وترك نفى استماع هذه الأشياء من حفاظها وهو موهوم؟ قلنا: كان معلوماً عندهم علماً يقينياً أنه ليس من أهل السماع والقراءة، وكانوا منكرين للوحي فلم يبق إلا المشاهدة، وهى وإن كانت فى غاية الاستبعاد إلا أنها نفيت على سبيل التهكم بالمنكرين للوحي مع علمهم بأنه لاسماع ولا قراءة"(٢).

---

(١) آل عمران/٤٤.

(٢) الكشاف ٤٢٩/١ ط دار المعرفة بيروت.التفسير الكبير للفخر الرازي ٥٠/٨ ط دار الفكر بيروت سنة ١٩٩٥م أبو السعود ٣٥/٢ ط دار إحياء التراث العربي بيروت.

و "من" للتبعيض وعلامتها إمكان سد بعض مسدها.

وقوله "**من أنباء الغيب**" جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب أي من الأنباء المتعلقة بالغيب، الأنباء: الأخبار عما غاب عنك، وأما الإيحاء فقد ورد في الكتاب الكريم على معانٍ مختلفة، يجمعها تعريف الموحى إليه بأمر خفي من إشارة أو كتابة أو غيرهما، وبهذا التفسير يعد الإلهام وحياً كقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ... ﴿٦٨﴾ ﴾(١)، وقال في الشياطين: ﴿ ... لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ... ﴿١٢١﴾ ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ ... فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾(٣) فلما كان الله سبحانه ألقى هذه الأشياء إلى الرسول (ﷺ) بواسطة جبريل (عليه السلام) بحيث يخفى ذلك على غيره سماه وحيا"(٤)، وقوله: (**نُوحِيهِ إِلَيْكَ**) جملة مستقلة مبينة للأولى ففيها كمال اتصال فوجب الفصل بين الجملتين، والضمير فى "نوحيه" عائد إلى "ذلك" في المشهور، واستحسن عوده إلى الغيب لأنه حينئذ يشمل ما تقدم من القصص ومالم يتقدم منها بخلاف ما إذا عاد إلى "ذلك" فإنه حينئذ يوهم الاختصاص بما مضى، وجوز أن تكون هذه الجملة خبراً عن المبتدأ قبلها، و "أنباء الغيب" إما متعلق بـ "نوحيه" أو حال من مفعوله أي "نوحيه" حال كونه بعض أنباء الغيب، وجعله حالاَ من المبتدأ رأى البعض، وصيغة الاستقبال عند قوم للإيذان بأن الوحي لم ينقطع بعد(٥).

---

(١) النحل/٦٨.

(٢) الأنعام/١٢١.

(٣) مريم/١١.

(٤) التفسير الكبير ٥١/٨، روح المعاني ١٥٨/٣ ط دار إحياء التراث العربي بيروت ط ٤ سنة ١٨٩٥م.

(٥) أبو السعود ٣٥/٢، روح المعاني ١٥٨/٣.

وقوله: (وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ) تقرير وتحقيق لكونه وحياً على طريقة التهكم بمنكريه، فإن طريق معرفة أمثال هاتيك الحوادث والواقعات إما المشاهدة ضرورة فنفيت تهكماً بهم و "لديهم" أي عند الذين اختلفوا وتنازعوا في تربيه مريم فالضمير عائد إلى غير مذكور دل عليه المعنى، والمقصود من هذه الجملة تحقيق كون الإخبار بما ذكر عن وحى على سبيل التهكم بمنكريه كأنه قيل: إن رسولنا أخبركم بمالا سبيل إلى معرفته بالعقل مع اعترافكم بأنه لم يسمعه ولم يقرأه في كتاب، وتنكرون أنه وحى فلم يبق مع هذا ما يحتاج إلى النفي سوى المشاهدة التي هي أظهر الأمور انتفاءً لا ستحالتها المعلومة عند جميع العقلاء، ونبه على ثبوت قصة مريم مع أن ما علم بالوحي قصة زكريا (عليه السلام) أيضاً لما أن تلك هى المقصودة بالإخبار أولاً، وإنما جاءت القصة الأخرى على سبيل الاستطراد ولاندراج بعض قصة زكريا فى ذكر من تكفل فما خلت الجملة عن تنبيه على قصته في الجملة، وروى عن قتادة أن المقصود من هذه الجملة: تعجيب الله سبحانه نبيه (عليه الصلاة والسلام) من شدة حرص القوم على كفالة مريم والقيام بأمرها، وسيق ذلك تأكيداً لاصطفائها (عليها السلام) ويبعد هذا الفصل بين المؤكد والمؤكد، ومع هذا أولى مما قيل: إن المقصود منها التعجيب من تدافعهم لكفالتها لشدة الحال ومزيد الحاجة التي لحقتهم حتى وفق لها خير الكفلاء زكريا (عليه السلام) بل يكاد يكون هذا غير صحيح دراية ورواية، وعلى كل تقدير لا يشكل نفى المشاهدة مع ظهور انتفائها عند كل أحد"(١).

وجملة (وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ) إيماء إلى خلو كتبهم عن بعض ذلك وإلا لقال: وماكنت تتلو كتبهم أي إنك تخبرهم عن أحوالهم كأنك كنت لديهم.

(١) روح المعاني ١٥٨/٣، أبو السعود ٣٥/٢، ٣٦، التفسير الكبير ٥١/٨.

وقولـــه: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ ظرف للاســتقرار العامــل فــي "لــديهم" و"أقلامهم" أقداحهم التي اقترعوا بها، وقيل: اقترعوا بأقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة تبركاً، و﴿يُلْقُونَ﴾ أي يرمونها ويطرحونها للاقتراع وهــي كنايــة واصفة حالهم إذا كان لديهم أمر مهم يريدون البت فيه فيفعلون ذلك، فإذا خــرج سهم أحدهم أو قلمه كانت النوبة له أو هو حظه الخاص به، وهى مأخوذة مــن القلم بمعنى القطع، ومنه قلامة الظفر، واختلفوا في عد هذه الأقلام حتــى روى البعض أنها كانت ستة وهو خلاف لا طائل تحته والله أعلم([1]).

﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ من تتمة الكلام الأول، وجعله ابتداء اســتفهام مفــسد للمعنى، ولما لم يصلح ﴿يُلْقُونَ﴾ للتعلق بالاستفهام لزم أن يقدر مــايرتبط بــه النظام، وهذه الجملة متعلقة بمحذوف دل عليــه ﴿يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ أي يلقونهــا ينظرون أو ليعلموا أيهم يكفلها وسبب ذلك مراعاة المعنى واللفــظ وإلا فتقــدير النظر أو العلم يغنى عن الآخر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ تكرير مع تحقــق المقــصود بعطــف "إذ يختصمون" على ﴿إِذْ يُلْقُونَ﴾ للإيذان بأن كل واحد من عدم الحــضور عنــد الإلقاء، وعدم الحضور عند الاختصام مستقل بالشهادة على نبوته (ﷺ) لا سيما إذا أريد باختصامهم تنازعهم قبل الاقتراع فإن تغيير الترتيب فى الــذكر مؤكــد لذلك، ويحتمل أن يكون اختصاماً آخر حصل بعد الإقراع، وبالجملة فالمقــصود من الآية شدة رغبتهم فى التكفل بشأنها، والقيام بإصلاح مهماتهــا ومــاذاك إلا

(١) التفسير الكبير ٥١/٨، روح المعاني ١٥٨/٣، أبو السعود ٣٦/٢.

لدعاء أمها حيث قالت: ﴿ ...فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾ (١)، وأشارت الآية إلى أنهم تنازعوا في كفالة مريم حين ولدتها أمها حنة، إذ كانت يتيمة – كما تقدم – فحصل من هذا الامتنان إعلام بأن كفالة زكريا مريم كانت بعد الاستقسام وفيه تنبيه على تنافسهم في كفالتها.

واختلف في وقت هذا الاقتراع والتشاح على قولين: أحدهما وهو المشهور المعول عليه أنه كان حين ولادتها وحمل أمها لها إلى الكنيسة، وثانيهما: أنه كان وقت كبرها وعجز زكريا (عليه السلام) عن تربيتها وهو قول مرجوح، وأوهن منه قول من زعم أن الاقتراع وقع مرتين في الصغر وأخرى في الكبر، وفي هذه الآية دلالة على أن القرعة لها دخل في تمييز الحقوق"(٢).

المقام الثاني: مقام الحديث عن نبي الله نوح (عليه السلام).

بعد أن تناول (سبحانه وتعالى) قصة نبي الله نوح (عليه السلام) من صنعه السفينة بأمر منه تعالى واستهزاء قومه به وصبره عليهم وماحدث للكون من أجل دعوته ربه مبينا ظلم هؤلاء القوم وأنه مغلوب على أمره، وأمر الله تعالى له بركوب السفينة وحدث ماقص الله علينا خبره ومناجاته ولده وعصيان الولد له ومناجاته ربه ورد الله على نوح أن الصلة إنما هى صلة الإيمان والعمل الصالح، فعاد الله تعالى منبهاً نبيه (صلى الله عليه وسلم) بإخباره بهذه القصة.

---

(١) آل عمران/٣٥، راجع الكشاف ٤٣٠/١، التفسير الكبير ٥٢/٨، روح المعاني ١٥٩/٣، أبو السعود ٣٦/٢.

(٢) روح المعاني ١٥٩/٨.

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾(١).

النظم البلاغي:

قوله تعالى: (تِلْكَ) إشارة إلى ماقصَّ من قصة نوح (عليه السلام) إما لكونها بتقضيها في حكم البعيد أو للدلالة على بعد منزلتها، وقيل: إن الإشارة إلى آيات القرآن وليس بذاك، وهى فى محل رفع على الابتداء. أي من الأخبار التي كانت غائبة عن الخلق.

وقوله: (مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ) أي بعض أخباره التي لها شأن وكونها بعض ذلك باعتبار أنها على التفصيل لم تبق لطول العهد معلومة لغيره تعالى حتى إن المجوس على ماقيل: ينكرونها رأساً، وقيل: إن كونها من الغيب لغير أهل الكتاب.

وقد ذكر غير واحد أن الغيب قسمان: مالا يتعلق به علمُ مخلوق أصلاً وهو الغيب المطلق، ومالا يتعلق به علمُ مخلوق معين وهو الغيب المضاف بالنسبة إلى ذلك المخلوق، وهو مراد الفقهاء في تكفير الحاكم على الغيب(٢).

و(مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ) أي من جنسها أي ليست من قبيل سائر الأنباء بل هى نسيج وحدها منفردة عما عداها أو بعضها(٣).

---

(١) هود/٤٩.

(٢) روح المعاني ٧٥/١٢.

(٣) أبو السعود ٢١٥/٤.

وجملــة (تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ) استئناف أريد منه الامتنان على النبــي (ﷺ) والموعظة والتسلية، فالامتنان من قوله: (مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ) والموعظة مــن قولــه "فاصبر" إلخ، والتسلية من قوله: (إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ) وتأثيث اســم الإشــارة بتأويل أن المشار إليه القصة، والأنباء: جمع نبأ وهو الخبر، فهذه الأنباء مغيبــة بالنسبة إلى العرب كلهم لعدم علمهم بأكثر من مجملاتها، وقولــه: (نُوحِيهَآ إِلَيۡكَ) التعبير فيه بصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية، وهو خبر ثانٍ لـــ "تلـك" والضمير لها أي موحاة إليك أو هو الخبر، و"من أنباء" متعلق به، وفائدة تقديمه نفى أن يكون علم ذلك بكهانة أو تعلم من الغير، والمقصود مــن ذكــر كونهــا موحاة إلجاءُ قومه (ﷺ) للتصديق بنبوته (عليه السلام) وتحذيرهم مما نزل بالمكذبين.

والمراد من قوله: (مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ) أنك ماكنت تعرف هذه القصة، بل قومك ماكانوا يعرفونها أيضاً، ونظيره أن تقول لإنسان أنت لاتعرف هذه المــسألة ولا أهل بلدك(1).

فإن قيل: أليس قد كانت قصة طوفان نوح (عليه السلام) مشهورة عند أهل العلــم؟ قلنا: تلك القصة بحسب الإجمال كانت مشهورة، أما التفاصــيل المــذكورة فمــا كانت معلومة(2).

وقوله (مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ) خبر آخر أي مجهولــة عنــدك وعنــد (قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ) أي الإيحاء إليك المعلوم وهى كناية دقيقة مؤدبة نفت عنــه (ﷺ) بأسلوب راقٍ دون أن يوسف بالجهل أو الغفلة، وذكر القوم معه (ﷺ) مــن

(1) الكشاف ٢/٢٧٤، التفسير الكبير ٩/١٨.

(2) التفسير الكبير ٩/١٨.

باب الترقي من الأعلى إلى الأدنى كما تقول: هذا الأمر لا يعمله زيد ولا أهلُ بلده لأنهم مع كثرتهم إذا لم يعلموا ذلك فكيف يعلمه واحد منهم، وقد علم أنه لم يخالط غيرهم.

والإشارة بقوله: ﴿مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ إما إلى القرآن، وإما إلى الوقت باعتبار ما في هذه القصة من الزيادة على ما ذكر في أمثالهما مما تقدم نزوله عليها، وإما إلى ﴿تِلْكَ﴾ بتأويل النبأ، فيكون التذكير بعد التأنيث شبيهاً بالالتفات(١).

وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ متفرع على الإيحاء، أو على العلم المستفاد منه المدلول عليه بما تقدم ﴿مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ أي وإذ قد أوحيناه إليك أو علمتها بذلك فاصبر على مشاق تبليغ الرسالة وأذية قومك كما صبر نوح (عليه السلام) على ما سمعته من أنواع البلايا فى هذه المدة المتطاولة، قيل: وهذا ناظر إلى ما سبق من قوله سبحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ...﴿١٢﴾﴾(٢) ووجه تفريع أمر الرسول بالصبر على هذه القصة أن فيها قياسَ حاله مع قومه على حال نوح (عليه السلام) مع قومه، فكما صبر نوح (عليه السلام) فكانت العاقبة له كذلك تكون العاقبة لك على قومك.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ تعليل للأمر بالصبر وتسلية له (ﷺ) وكون العاقبة الحميدة للمتقين وهو في أقصى درجات التقوى والمؤمنون كلهم متقون مما يسليه ويهون عليه الخطوب ويذهب عنه ما عسى يعتريه من ضيق صدره،

(١) التحرير والتنوير ٩٣/١٢ ط الدار التونسية للنشر تونس سنة ١٩٨٤م.

(٢) هود/١٢، روح المعاني ٧٥/١٢، ٧٦، تفسير النسفي/٥٠١ ط دار المعرفة بيروت ط أولى سنة ٢٠٠٠م.

وهذا على تقدير أن يراد بالتقوى الدرجة الأولى منه أعنى التوقي من العـذاب المخلد بالتبرؤ من الشرك، ويجوز أن يراد الدرجة الثالثة منه وهـى أن يتنـزه عما يشغل سره عن الحق ويتبتل إليه بشراشره وهو التقـوى الحقيقـي، فـإن التقوى بهذا المعنى منطوية على الصبر المذكور فكأنه قيل: فاصبر فإن العاقبـة للصابرين(١).

والعاقبة: الحالة التي تعقب حالة أخرى، وقد شاعت عند الإطلاق في حالة الخير، والتعريف فيه للجنس، واللام في (لِلْمُتَّقِينَ) للاختـصاص والملـك، فيقتضى ملك المتقين لجنس العاقبة الحسنة، فهى ثابتة لهم لا تفوتهم وهى منتفية عن أضـدادهم.

والآيـة فذلكة لما تقدم وبيان للحكمة في إيحاء ذلـك مـن إرشـاده (ﷺ) وتهديد قومه المكذبين له.

قال الإمام الفخر (رحمه الله) فإن قال قائل: إنه تعالى ذكر هذه القـصة فـي سورة يونس إنه أعادها ههنا مرة أخرى فما الفائدة في هذا التكرير؟.

قلنا: إن القصة الواحدة قد ينتفع بها من وجوه: ففي السورة الأولـى كـأن الكفار يستعجلون نزول العذاب، فذكر تعالى قصة نوح في بيان أن قومه كـانوا يكذبونه بسبب أن العذاب ماكان يظهر ثم في العاقبة ظهر، فكذا في واقعة محمد (ﷺ) وفى هذه السورة ذكر هذه القصة لأجل أن الكفـار كـانوا يبـالغون فـي الإيحاش فذكر تعالى هذه القصة لبيان أن إقدام الكفار على الإيذاء، والإيحاشـن كان حاصلاً في زمان نوح، إلا أنه (عليه السلام) لما صبر نال الفتح والظفر، فكن يـا محمد كذلك لتنال المقصود، ولما كان وجه الانتفاع بهذه القصة في كل سـورة من وجه آخر لم يكن تكريرها خالياً عن الفائدة"(٢).

---

(١) أبو السعود ٢١٦/٤، روح المعاني ٧٥/١٢.

(٢) التفسير الكبير ٩/١٨، ١٠.

المقام الثالث: مقام الحديث عن نبي الله يوسف بن يعقوب (عليهما السلام).

بعد أن أنهى الله تعالى الحديث عن قصة يوسف مستوفاة من أول رؤياه وتدبير إخوته للتخلص منه ونقله إلى عزيز مصر وما دار بينه وبين زليخا ودخوله السجن وخروجه منه وامتنان الله عليه وسيادته على خزائن مصر والمحاورة التي دارت بينه وبين إخوته في أخذ الميرة وغيرها وتحسر أبيه عليه ومحاولته البحث عنه وعن أخيه بنيامين وقصة القميص ووفود أهله عليه والمحاورة التي وقعت بينه وبين أبيه يعقوب وأسف إخوته على ما بدر منهم وبيان امتنان الله على أهله والاعتراف بهذا الامتنان.

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾(١).

النظم البلاغي:

قوله (ذَٰلِكَ) إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف والخطاب لرسول الله (ﷺ) وهو تذييل للقصة عند انتهائها، والإشارة إلى ما ذكر من الحوادث، أي ذلك المذكور واسم الإشارة لتمييز الأنباء أكمل تمييز لتتمكن من عقول السامعين لما فيها من المواعظ، و"ماغاب عن علم الناس، وأصله مصدر غاب فسمى به الشئ الذي لا يشاهد، وتذكير ضمير "نوحيه" لأجل مراعاة اسم الإشارة، والتعبير بلام البعد لبعد منزلتها لأنها لتقضيها في حكم البعيد، و"أنباء الغيب" الذي لا يحوم حول خبره أحد، وقوله: (ذَٰلِكَ) مبتدأ، وقوله" من أنباء الغيب" خبره، وقوله (نُوحِيهِ إِلَيْكَ) خبر بعد خبر أو حال من الضمير في الخبر.

(١) يوسف/١٠٢.

وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي عند إخوة يوسف (عليه السلام) ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ وهو جعلهم إياه في ﴿غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ وهم يمكرون به ويبغون له الغوائل، والضمائر عائدة إلى كل من صدر منه ذلك في هذه القصة من الرجال والنساء على طريقة التغليب، فيشمل إخوة يوسف (عليه السلام) والسيارة وامرأة العزيز، ونسوتها.

والمعنى: إن هذا النبأ غيب لا يحصل لك إلا من جهة الوحي، لأنك لم تحضر بنى يعقوب حين أجمعوا أمرهم وهو إلقاؤهم أخاهم فى البئر، وهذا تهكم بقريش وبمن كذبه، لأنه لم يخف على أحد من المكذبين أنه لم يكن من جملة هذا الحديث وأشباهه ولا لقي فيها أحداً، ولا سمع منه، ولم يكن من علم قومه، فإذا أخبر به وقص هذا القصص العجيب الذي أعجز حملته ورواته لم تقع شبهة في أنه ليس منه وأنه من جهة الوحي، فإذا أنكروه تهكم بهم وقيل لهم: قد علمتم يا مكابرة أنه لم يكن مشاهداً لمن مضى من القرون الخالية([1]).

وهـذا من قبيل المذهب الكلامي والمراد به: أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريق أهل الكلام([2]).

والمراد هنا: جعلهم إياه في غيابة الجب ويبغون له الغوائل حتى تقف على ظواهر أسرارهم وبواطنها وتطلع على سرائرهم طراً وتحيط بما لديهم خبراً وليس المراد مجرد نفى حضوره (عليه السلام) في مشهد إجماعهم ومكرهم فقط بل فى سائر المشاهد أيضاً وإنما تخصيصه بالذكر لكونه مطلع القصة وأخفى أحوالها، ومن المعلوم الذي لا يخفى على مكذبيك أنك ما لقيت أحداً سمع ذلك

(١) الكشاف٢/٣٤٥، ٣٤٦، أبو السعود ٣٠٨/٤، ٣٠٩، روح المعاني ٦٤/١٣، التفسير الكبير ٢٢٦/١٨، التحرير والتنوير ٦٠/١٣.

(٢) الإيضاح ٦٥/٦ ت د. خفاجى ط دار الجيل بيروت ط ثالثة سنة ١٩٩٣م، جواهر البلاغة للهاشمي/٣٠٥ ط المكتبة العصرية بيروت ط أولى سنة ١٩٩٩م.

فتعلمته منه، وإنما حذف الشق الأخير مع أن الدال على ما ذكر مجموع الأمرين لعلمه من آية أخرى كقوله تعالى: ﴿ ...مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ...﴿٤٩﴾ ﴾(١).

وسر العدول عن قوله (مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا) إلى قوله: (إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ) وهو أبلغ مما ذكر أولاً، وذكر لترك ذلك نكتة أخرى أيضاً، وهى أن المذكور مكرهم وما دبروه وهو مما أخفوه حتى لا يعلمه غيرهم فلا يمكن تعلمه من غيره ولا يخلو عن حسن، وأيا ما كان ففي الآية إيذان بأن ما ذكر من النبأ هو الحق المطابق للواقع، وما ينقله أهل الكتاب ليس على ما هو عليه يعنى أن مثل هذا التحقيق بلا وحى لا يتصور إلا بالحضور والمشاهدة وإذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحي.

وهذه الجملة استخلاص لمواضع العبرة من القصة، وفيها منه على النبي (ﷺ) وتعريض للمشركين بتنبيههم لإعجاز القرآن من الجانب العلمي، فإن صدور ذلك من النبي (ﷺ) الأمي آية كبرى على أنه وحى من الله تعالى"(٢)، ولذلك عقب بقوله: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ توركاً على المشركين.

قال العلامة الألوسي: وقال بعض المحققين: إنه تهكم بمن كذبه وذلك من حيث إنه تعالى جعل المشكوك فيه كونه (عليه السلام) حاضراً بين يدى أولاد يعقوب (عليه السلام) المرتاب قبل التعرف هو تلقيه من أصحاب هذه القصة، وكان ظاهر

(١) هود/٤٩.

(٢) التحرير والتنوير ٦١/١٣.

الكلام أن ينفى ذلك فلما جعل المشكوك مالا ريب فيه لأن كونه (عليه السلام) لم يلق أحداً ولا سمع كان عندهم كفلق الفجر جاء التهكم البالغ وصار حاصل المعنى قد علمتم يا مكابرة أنه لم يكن مشاهداً لمن مضى من القرون الخالية وإنكاركم لما أخبر به يفضى إلى أن تكابروا بأنه قد شاهد من مضى منهم"(١).

وجملة (وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ) في موضع الحال إذ هى تمام التعجيب، وجملة (وَهُمْ يَمْكُرُونَ) حال من ضمير (أَجْمَعُوا) وأتى الفعل (يَمْكُرُونَ) بصيغة المضارع لاستحضار الحالة العجيبة.

المقام الرابع: مقام الحديث عن الله تعالى وأنه ما اتخذ عونا من البشر لشهادة الخلق.

بعد أن بين الله تعالى أمره للملائكة بالسجود لآدم فسجدوا جميعاً إلا إبليس الذي هو من الجن خرج عن طاعة ربه، ثم نعى الله تعالى على البشر أن يتخذوا هذا المتمرد وذريته أولياء من دون الله مع أنهم أعداء لكم بئس هذا الاتخاذ، ثم بين الله تعالى نفى شهادة أحد منهم خلق السموات والأرض ولا حتى خلق أنفسهم وأنه لم يستعن بأحد في الخلق فكيف تقع منهم طاعة لهؤلاء الماردين.

قال تعالى: ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾(٢).

النظم البلاغي:

(١) روح المعاني ١٣/٦٤.
(٢) الكهف/٥١.

قوله تعالى: (مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ) استئناف مسوق لبيان عدم استحقاقهم للاتخاذ المذكور في أنفسهم بعد بيان الصوارف عن ذلك في خباثة الأصل والفسق والعداوة أي ما أحضرت إبليس وذريته، وتتنزل هذه الجملة منزلة التعليل للجملتين اللتين قبلها وهما (أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ) إلى قوله: (بَدَلًا) فإنهم لما لم يشهدوا خلق السماوات والأرض لم يكونوا شركاء لله فى الخلق بطريق الأولى فلم يكونوا أحقاء بأن يعبدوا، وهذا احتجاج على المشركين بما يعترفون به فإنهم يعترفون بأن الله هو المتفرد بخلق السموات والأرض وخلق الموجودات.

والاستشهاد: جعل الغير شاهداً أي حاضراً، وهو هنا كناية عن إحضار خاص، وهو إحضار المشاركة في العمل أو الإعانة عليه، ونفى هذا الشهود يستلزم نفى المشاركة في الخلق على انتفاء إلهيتهم بسبق العدم على وجودهم، وكل ما جاز عليه العدم استحال عليه القدم، والقدم من لوازم الإلهية، وضمائر الغيبة فى قوله: (أَشْهَدتُّهُمْ) وقوله: (أَنفُسِهِمْ) عائدة إلى المتحدث عنه، أي إبليس وذريته كما عاد إليهم الضمير في قوله: (وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ).

قال الإمام الفخر (رحمه الله)**:** "اختلفوا في أن الضمير في قوله – ما أشهدتهم– إلى من يعود؟ فيه وجوه: **أحدها:** وهو الذي ذهب إليه الأكثرون أن المعنى ما أشهدت الذين اتخذتموهم أولياء خلق السماوات والأرض ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله: ﴿...فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ...﴿٥٤﴾﴾(١) يعنى ما أشهدتهم لأعتضد بهم والدليل عليه قوله: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴿٥١﴾﴾ أي وما كنت متخذهم فوضع الظاهر موضع المضمر بياناً لإضلالهم، **وثانيها:** وهو أقرب

(١) البقرة/٥٤.

عندي أن الضمير عائد إلى الكفار الذين قالوا للرسول (ﷺ) إن لم تطرد من مجلسك هؤلاء الفقراء لم نؤمن بك فكأنه تعالى قال: إن هؤلاء الذين أتوا بهذا الاقتراح الفاسد والتعنت الباطل ما كانوا شركاء لي في تدبير العالم بدليل قوله (مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ) إلخ ولا اعتضدت بهم في تدبير الدنيا والآخرة بل هو قوم كسائر الخلق، فلم أقدموا على هذا الاقتراح الفاسد؟ والذي يؤكد هذا أن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورات، وفى هذه الآية المذكورة الأقرب هو ذكر أولئك الكفار وهو قوله – بئس للظالمين بدلاً – والمراد بالظالمين أولئك الكفار

و ثالثها: أن يكون المراد من قوله: (مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ) كون هؤلاء الكفار جاهلين بما جرى به القلم في الأزل من أحوال السعادة والشقاوة، فكأنه قيل السعيد من حكم الله بسعادته في الأزل، والشقي كذلك وأنتم غافلون عن أحوال الأزل، وإذا جهلتم هذه الحالة فكيف يمكنكم أن تحكموا لأنفسكم بالرفعة والعلو والكمال ولغيركم بالدناءة، بل ربما صار الأمر في الدنيا والآخرة على العكس فيما حكمتم به"([1]).

وفى الآية تهكم بالكفار وإيذان بكمال ركاكة عقولهم وسخافة آرائهم حيث لايفهمون هذا الأمر الجلي الذي لا يكاد يشتبه على البله والصبيان فيحتاجون إلى التصريح به، وإيثار نفى الإشهاد على نفى شهودهم ونفى اتخاذهم أعواناً على نفى كونهم كذلك للإشعار بأنهم مقهورون تحت قدرته تعالى تابعون لمشيئته سبحانه وإرادته (ﷻ) بمعزل من استحقاق الشهود والمعونة من تلقاء

(١) التفسير الكبير ١٣٩/٢١.

أنفسهم من غير إحضار واتخاذ وإنما قصارى ما يتوهم فيهم أن يبلغوا ذلك المبلغ بأمر الله جل جلاله ولم يكد ذلك يكون(١).

قوله: (وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ) أي أنفس بعضهم بقرينة استحالة مشاهدة المخلوق خلق نفسه من إطلاق الكل وإرادة البعض، ومن هنا تتناسق الضمائر ويتقدم المعنى المقصود، وفى هذا التعبير رد عليهم وتجهيل لأمر قوة مزعومة على مشاركة الخالق فيما خلق ففيه نفى بطريق خفي وتعريض بضعفهم وعدم قدرتهم والاستهانة بحالهم وقوله: (وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ) أي متخذهم ووضع الظاهر موضع الضمير ذما لهم وتسجيلاً عليهم بالإضلال وتأكيداً لما سبق من إنكار اتخاذهم أولياء.

والمراد بـ (الْمُضِلِّينَ) الشياطين، لأنهم أضلوا الناس بإلقاء خواطر الضلالة والفساد فى النفوس، وهى جملة التذييل لإفادة الذم وهى في أساسها كلام مستقل، و(عَضُدًا) أي أعواناً في شأن الخلق أو في شأن من شئوني حتى يتوهم شركتهم في التولي بناءً على الشركة في بعض أحكام الربوبية، وفيه تهكم بهم وإيذان بكمال ركاكة عقولهم وسخافة آرائهم بحيث لا يفهمون هذا الأمر الواضح الذي يشوبه شك، والعضد في الأصل ما بين المرفق إلى الكتف، ويستعار للمعين على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، وهو المراد هنا ولكونه نكرة فى سياق النفي عم، وفسر بالجمع والإفراد لرؤس الآي، وقيل: إنما لم يجمع لأن الجميع في حكم الواحد في عدم صلاحية الاعتضاد، والمراد: إذا لم يكونوا عضداً لي في الخلق فما لكم تتخذونهم شركاء لي في العبادة؟.

(١) أبو السعود ٢٢٨/٥، ٢٢٠، روح المعاني ٢٩٦/١٥.

وقرئ وما كنت بالفتح والخطاب لرسول الله (ﷺ) والمعنى: وماصح لك الاعتضاد بهم وما ينبغي لك أن تعتز بهم، وقرأ على (ﷺ)(وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ) بالتنوين على الأصل، وقرأ الحسن عضداً بسكون الضاد ونقل ضمتها إلى العين وقرئ غير ذلك"(١) ولعل وصف أولئك الظالمين بالإضلال ظاهر، وقيل: كل ضال مضل لأن الإضلال إما بلسان القال أو بلسان الحال والثانى لا يخلو عنه ضال.

وعلى قراءة الفتح "فتح تاء كنت" يحصل الالتفات من التكلم إلى الخطاب لإحضاره في حوزة الذات العلية فلما كان الله تعالى قد بين نفى إشهاد الظالمين أو ذرية إبليس خلق السموات والأرض أو خلق أنفسهم لعدم قدرتهم على استطاعة ذلك كذلك كان لمحمد (ﷺ) حق في عدم تولى الضالين أو الظالمين أو الاستعانة بهم لأنهم أضعف ما يكون فهم من الهشاشة والضعف بما لا يقادر قدره ولا يكتنه كنهه وخلاصة القول: أن الله تعالى ما أشهد المشركين أو غيرهم من أهل الضلال خلق ذلك كله وما أطلعهم على أسرار التكوين ولاخصهم بفضائل لا يحويها غيرهم حتى يكون قدوة للناس فيؤمنوا بإيمانهم كما يزعمون فلا يلتفت إلى قولهم طمعاً في نصرتهم للدين فإنه لاينبغي لي أن أعتضد بالمضلين ولا أنت يا محمد كذلك.

وقال الألوسي: "وجوز أن يراد به المشاورة مجازاً، والمشاورة هى طلب الرأي أو النصيحة- على طريق الاستعارة التصريحية التبعية فكأنه أراد أن يشهد منهم ماتخلص إليه نفوسهم وأفكارهم - ولا مانع على هذا أن يراد من

(١) الكشاف ٤٨٨/٢، أبو السعود ٢٢٨/٥، روح المعاني ٢٩٧/١٥، التفسير الكبير ١٣٩/٢١.

السموات والأرض ما يشمل أهلهما، فكأنه قيل ما شاورتهم في خلق أحد لا الكفار ولا غيرهم، فما بال هؤلاء الكفار يتولونهم، وأدنى ما يصحح التولي كون الولي ممن يشاور في أمر المتولي أو في أمر غيره، ويكون نفى اتخاذهم أعواناً مطلقاً في شئ من الأشياء بعد نفى مشاورتهم في الخلق ليؤدى الكلام ظاهراً عموم نفى مد خليتهم بوجه من الوجوه رأياً وإيجاداً وغير ذلك في شئ من الأشياء"(١).

ويقول أيضاً: "وقيل قد يراد الإشهاد في جانب المعطوف نفى المشاورة، ومنه نفى أن يكونوا خلقوا حسب مشيئتهم، ومنه نفى أن يكونوا خلقوا كاملين فإنه يقال خلق كما يشاء بمعنى خلق كاملاً"(٢) وكلامه الأخير يعد من باب الكناية البعيدة لتعدد الوسائط بين طرفيها، وهى كناية دالة على ثبوت صفة القدرة والعلم الخاصين به (ﷻ) فانتفى من خلالها استعانته سبحانه بأي جنس من الأجناس ليكون عوناً له بل ولا حتى عوناً في قدرته على خلق نفسه هو.

وقرأ أبو جعفر المدني: "ما أشهدناهم" بنون العظمة مناسبة للمقام الكريم زيادة في نفى الإشهاد وعدم حاجته سبحانه إلى الاستعانة بأي من المخلوقات فإنا قد تفردنا بخلق الأشياء ولم أعتضد بأحد لعدم حاجتي إليهم لضعفهم وعجزهم عن مساعدة أنفسهم فكيف بي؟.

---

(١) روح المعاني ٢٩٦/١٥، البحر المحيط ١٣٦/٦ ط دار إحياء التراث العربي بيروت ط ثانية سنة ١٩٩٠م.

(٢) روح المعاني ٢٩٦/١٥، البحر المحيط ١٣٦/٦ ط دار إحياء التراث العربي بيروت ط ثانية سنة ١٩٩٠م.

المقام الخامس: مقام الحديث عن ملكة سبأ - بلقيس بنت ثُبع الحميري -.

بعد أن بين الله تعالى تفقد سليمان (عليه السلام) الطير وهو جنس من أجناس مملكته، وبحثه عن الهدهد فلم يجده ظناً منه أنه غاب بدون إذن ولا يحق له ذلك، وعودة الهدهد بنبأ ملكة بلقيس وما أوتيت من عرش لم ير مثله وما عابه الهدهد عليهم من سوء المعتقد وامتحان سليمان لهذا الخبر بإرسال الهدهد بكتاب خاص منه وضع على سرير عرشها، فاستغربت وجود هذا الكتاب مع وصفه بكونه كريماً ذكاءً منها، وطلب سليمان مجيئهم بلا علو أو غرور، وطلبها مشورة عشيرتها ورؤساء قومها، وأنه لا تبت أمراً أو تقطع رأياً بدونهم وهكذا شأن العظماء.

قال تعالى: ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾(١).

النظم البلاغي:

قولها: **(قَالَتْ)** إلخ جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً فيها شبه كمال الاتصال فالآية التي قبلها أثارت سؤالاً فماذا قالت حين وحدت هذا الكتاب؟ فجاء الجواب جمعت عشيرتها وقالت إلخ فقد سألتهم إبداء آرائهم ماذا تعمل تجاه دعوة سليمان (عليه السلام) وأن يشيروا عليها في هذا الأمر الذي نزل بها.

وقد أعادت القول وكررته حكاية للإيذان بغاية اعتنائها بما في حيزها من قولها. والافتاء الإخبار بالفتوى وهو إزالة مشكل يعرض أو الجواب في الحادثة اشتقت من الفتى في السن على طريق الاستعارة التصريحية التبعية، والمراد

(١) النمل/٣٢، ٣٣.

بالفتوى ههنا الإشارة عليها بما عندهم فيما حدث لها من الرأي والتدبير(١)، وقد عبرت عن الجواب بالفتوى التي هى الجواب في الحوادث المشكلة غالباً تهويلاً للأمر ورفعاً لمحلهم بالإشعار بأنهم قادرون على حل المشكلات الملمة.

وسر التعبير بجملة النداء مع أنهم موجودون في حضرتها لعلو قدرهم وبعد منزلتهم وكونهم أهل المشورة أو الحل والعقد، ولذا آثرت التعبير بيا الدالة على البعد، وقصدت بإشارتهم واستطلاع آرائهم وتطييب نفوسهم ليمالؤها ويقوموا معها، والتعبير بقولها (**ٱلْمَلَؤُا**) دلالة على الجمع الكثير و ألا يشذ أحد منهم في رأيه وألا يخالف هواه هواها ومقصده مقصدها وأن يكونوا جميعاً على قلب رجل واحد في اتخاذ موقف تكون فيه السيادة لها ولقومها على هزيمة سليمان وحزبه ظناً منها ذلك بما جاء فيما بعد من آيات، والأمر هو الحال المهم، وإضافته إلى ضميرها لأنها المخاطبة بكتاب سليمان ولأنها المضطلعة بما يجب إجراؤه من شئون الممكلة وعليها تبعة الخطأ في المنهج الذي تسلكه من السياسة، ولذلك يقال للخليفة وللملك وللأمير و لعالم الدين: ولى الأمر.

قال الراعي النميري(٢)

أولى أمر الله إنا معشر ** حنفاء نسجدُ بكرة وأصيلا

وقد أفادت إضافة "أمرى" تعريفاً أي في الحادثة المعينة.

وقوله "قاطعة أمراً" خبر كان متمماً بيان أمرها وعادتها، والمراد: ما أقطع أمراً من الأمور المتعلقة بالملك إلا بمحضركم وبموجب آرائكم، والإتيان بـ "كان" للإيذان بأنها استمرت على ذلك أو لم يقع منها غيره في الزمن

---

(١) الكشاف ١٤٦/٣.

(٢) الراعي النميري عصره – حياته – شعره تأليف د. محمد نبيه حجاب/١٥٤ مكتبة نهضة مصر القاهرة سنة ١٩٩٣م. وروايته أخليفة الرحمن.

الماضي فكذا في هذا الأمر، فهي عاملة عملاً لا تردد فيه بالعزم على ما تجيب به سليمان، فكانت عاقلة حكيمة مستشيرة لا تخاطر بالاستبداد بمصالح قومها ولا تعرض ملكها لمهاوي أخطاء المستبدين، وأنها لا تقضى في المهمات إلا عن استشارتهم، وفى قراءة ابن مسعود (ﷺ): قاضية أي لاأبت أمراً إلا بمحضركم، وأرادت الانقطاع إليهم والرجوع إلى استشارتهم.

وقوله: (حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ) غاية للقطع، والمراد: تحضروني أو تشيروني أو تشهدوا أنه صواب، وهو مضارع شهد المستعمل في حضر كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ﴿١٨٥﴾﴾ (١) أي حضر، وشهد هذا يتعدى بنفسه على كل ما يحضر فاعل الفعل عنده من مكان وزمان واسم ذات، وذلك تعد على التوسع لكثرته، وهو كناية هنا عن المشاورة لأنها يلزمها الحضور غالباً إذ لا تقع مشاورة مع غائب ومفهوم الجملة – كما ذكرنا – كناية عن معنى: توافقوني فيما أقطعه، أي يصدر منها في مقاطع الحقوق والسياسة إما بالقول كما جرى في هذه الحادثة، وإما بالسكوت وعدم الإنكار لأن حضور المعدود للشورى في مكان الاستشارة مغنٍ عن استشارته إذ سكوته موافقة(٢).

وقرأ الجمهور (تَشۡهَدُونِ) بحذف الياء وصلاً ووقفاً، وقرأ يعقوب بإثباتها وصلاً ووقفاً وقوله: (قَالُواْ نَحۡنُ) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية قولها كأنه قيل: فماذا قالوا في جوابها؟ ففي الجملة شبه كمال اتصال ومن هنا وجب الفصل بينها وبين سابقتها لأن الأولى أثارت هذا السؤال فجاء هذا القول جواباً عنه.

---

(١) البقرة/١٨٥.

(٢) التحرير والتنوير ٢٦٣/١٩، ٢٦٤.

وجوابهم جاء في قولهم: (نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ) والتعريف بضمير التعظيم لبيان مكانتهم وعظمهم في عشيرتهم، وأن في ذكره بياناً وتوضيحاً لحالهم ولما يتمتعون به من وفرة في قوة الأجساد من شجاعة مفرطة وبلاء في الحرب، قيل: كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً كل واحد على عشرة آلاف، وقوله: (نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ) المراد بها قوة الأجسام وقوة الآلات، والمراد بالبأس النجدة والثبات فى الحرب.

قال الإمام الفخر: "وحاصل الجواب أن القوم ذكروا أمرين: أحدهما – إظهار القوة الذاتية والعرضية ليظهر أنها إن أرادتهم للدفع والحرب وجدتهم بحيث تريد، والآخر قولهم – والأمر إليك – وفى ذلك إظهار الطاعة لها إن أرادت السلم، ولا يمكن ذكر جواب أحسن من هذا والله أعلم"(١).

وقولهم (وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ) تسليم للأمر إليها بعد تقديم ما يدل على القوة والشجاعة حتى لا يتوهم أنه من العجز، والأمر بمعناه المعروف أو المعنى الشأن وهو مبتدأ، و (إِلَيْكِ) متعلق بمحذوف وقع خبراً له ويقدر مؤخراً ليفيد الحصر المقصود لفهمه من السياق أي والأمر إليك موكول.

وقوله: (فَانْظُرِي) تفريع وتعقيب لما سبق بعد أن أسندوا الأمر إليها لتفعل ما تشاء، واستعمال النظر هنا دون تدبري أو افعلي فالنظر هو الإحاطة التامة بالأمر من جميع جوانبه بألا تترك منه شاردة أو واردة سواء أرادت الصلح أو المقاتلة نطعك ونتبع رأيك، وقيل: أرادوا نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأي والمشورة وإليك الرأي والتدبير، فانظري ماذا ترين نكن في الخدمة فلما

(١) التفسير الكبير ١٩٦/٢٤.

أحست منهم الميل إلى الحرب والعدول عن السنن الصواب شرعت في تزييف مقالتهم المنئبة عن الغفلة عن شأن سليمان (عليه السلام) حسبما تعتقده(١).

وقولهم (فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ) كأنهم أشاروا عليها بالقتال أو أرادوا نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأي فلما أحست منهم الميل إلى المحاربة رأت من الميل إلى الصلح والابتداء بما هو أحسن ورتبت الجواب، فزيفت أولاً ما ذكروه وأرتهم الخطأ فيه(٢).

وقولهم (تَأْمُرِينَ) بيان وتعليل لكون الأمر والتنفيذ في يديها هى لا في أيديهم وهكذا شأن الملوك أو الحكام يستشيرون أولاً فلما لم يقع الأمر بما هو صالح لأممهم ويكون هلاكاً لنسلتهم يستعيضون عنه بصالح الأمم ويعدلون عن الفاسد ليتم لهم النافع أو الصالح فيلجأون إليه لأنهم هم المسؤولون أمام شعوبهم ومحكوميهم.

وقد استمد الفقهاء من هذا: أن على القاضي إذا جلس للقضاء أن يقضى بمحضر أهل العلم أو مشاورتهم، وكان عثمان (رضي الله عنه) يقضى بمحضر أهل العلم، وكان عمر يستشيرهم وإن لم يحضروا، وقال الفقهاء: إن سكوتهم مع حضورهم تقرير لحكمه، وليس في هذه الآية دليل على مشروعية الشورى لأنها لم تحك شرعاً إلهياً ولا سيق مساق المدح، ولكنه حكاية ما جرى عند أمة غير متدينة بوحي إلهي.

---

(١) أبو السعود ٢٨٤/٦، روح المعاني ١٩٧/١٩.

(٢) الكشاف ١٤٧/٣.

المقام السادس: مقام الحديث عن مخاطبة الإنسان اللاهي عن سكرات الموت.

بعد أن ذكر الله تعالى قدرته على خلق الإنسان الأول وأنه لم يعجزه ذلك، وأن الناس في خلط من أمرهم بشأن ذلك، وأن الخالق القادر على تسوية هذا الهيكل الإنساني هو ربه (ﷻ) وأنه (ﷻ) يعلم علماً محيطاً بما يسير في خلجات هذا الإنسان وأن وجوده سبحانه وكينونته فيه أقرب إلى ماهو في دواخل نفسه وهو أقرب شئ إليه وهو حبل الوريد، وأن له ملكين يكلان أمره أحدهما عن اليمين، والآخر عن الشمال، وأنه لا ينطق بكلمة صغرت أو كبرت إلا كان لها رقيب يرقبها وعتيد يعتد لها فيسجلها عليه، ثم تكون النهاية، بسكرات محسوبة عليه معدودات كان يظن أنها لا تأتيه ففاجأته لينتقل بها من عالم إلى عالم آخر.

قال تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾(١)

النظم البلاغي:

قوله: (وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ) معطوف على قوله: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ) من عطف الجمل على الجمل فالثانية خبرية والأولى إنشائية غير طلبية بدأت بالقسم والجملتان مشتركتان في التنبيه على الجزاء على الأعمال، وفى هذا تنقل لمراحل الأمور العارضة للإنسان التي تسلمه من حال إلى آخر حتى يقع في الجزاء على أعماله التي قد أحصاها الحفيظان، وإنما خولف التعبير في المعطوف بصيغة الماضي دون صيغة المضارع التي صيغ بها المعطوف عليه لأنه لقربه صار بمنزلة ماحصل قصداً لإدخال الروع في نفوس المشركين وهو

(١) ق/١٩.

المستفاد من قوله: (ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ) نظير قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ ﴿٨﴾ ﴾(١)

فقوله: (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ) كلام وارد بعد تتميم الغرض من إثبات ما أنكروه من البعث بأبين دليل وأوضحه دال على أن هذا المنكر أنتم لا قوه فخذوا حذركم، والتعبير بالماضي هنا وفيما بعد لتحقق الوقوع وغاية الاقتراب"(٢).

والمجئ مجاز في الحصول والاعتراء على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية اشتق من المجئ "جاء" بمعنى حصل أو اعترى الإنسان شدة الموت ونزعته، وفى هذه الاستعارة تهويل لحالة احتضار الإنسان وشعوره بأنه مفارق الحياة التي ألفها وتعلق بها قلبه والسكرة: اسم لما يعترى الإنسان من ألم أو اختلال في المزاج يحجب من إدراك العقل فيختل الإدراك ويعترى العقل غيبوبة، وهى مشتقة من السكرة بفتح فسكون وهو الغلق لأنه يغلق العقل ومنه جاء وصف السكران.

و (سَكْرَةُ الْمَوْتِ) هى شدته مستعارة من الحالة التي تعرض بين المرء وعقله فهى شدة تذهب بالعقل استعارة أصلية بجامع أن كلا منهما يصيب العقل بما يصيب، ويجوز أن يشبه الموتُ بالشراب على سبيل الاستعارة المكنية، ويجعل إثبات السكرة له تخييلاً ولكن ليست بالقوة.

---

(١) الجمعة/٨.

(٢) روح المعاني ١٨٢/٢٦.

معنى الباء في (بِٱلْحَقِّ).

قيل: إنها إما للتعدية كقولك: جاء الرسول بالخبر والمعنى أحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر الذي نطقت به كتب الله تعالى ورسله -عليهم الصلاة والسلام-، وقيل: حقيقة الأمر وجلية الحال من سعادة الميت وشقاوته، وقيل: بالحق الذي ينبغي أن يكون من الموت والجزاء فإن الإنسان خلق له، وإما للملابسة كما في قوله تعالى: ﴿...تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ...﴿٢٠﴾﴾(١) أي ملتبسة بالحق أي بحقيقة الأمر، وقيل: بالحكمة والغاية الجميلة، وقرئ (سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ) والمعنى: إنها السكرة التي كتبت على الإنسان بموجب الحكمة وأنها لشدتها توجب زهوق الروح أو تستعقبه، وقيل: الباء بمعنى مع، وقيل: سكرة الحق سكرة الله تعالى على أن "الحق" من أسمائه (ﷻ)، والإضافة تفظيعاً لشأنها وللتهويل لأن ما يجئ من العظيم عظيم، وقرأ ابن مسعود "سكرات الموت" جمعاً، ويوافقه حديث البخاري من حديث عائشة (رضي الله عنها) عنه (ﷺ) "**لا إله إلا الله إن الموت سكرات**"(٢) وقوله: (ذَٰلِكَ) إشارة إلى الموت بتنزيل قرب حصوله منزلة الحاصل المشاهد، والإشارة إلى الموت لأن الكلام في الكفرة، وقيل الإشارة إلى الحق والخطاب للفاجر لا للإنسان مطلقاً، وقيل للإنسان لأن النفرة عنه شاملة لكل فرد من أفراده طبعاً، لقوله: (وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ) على طريق الالتفات من التكلم إلى الخطاب.

---

(١) المؤمنون/٢٠.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ت محمد فؤاد عبد الباقي ٣٦٩/١١ باب سكرات الموت ط دار الريان للتراث القاهرة ط أولى سنة ١٩٨٧م، الكشاف ٧/٤، أبو السعود ١٢٩/٨، روح المعاني ١٨٢/٢٦.

وقوله (مَاكُنتَ مِنْهُ) لإلفات ذهنه إلى أن الموت الذي لم يدر بخلده ولم يكن على ذكر منه في دنياه يراه ساعة الاحتضار ماثلاً أمام عينيه يحاول الفرار منه والنجاة إلى طريق يحميه من تلك السكرات إلا أنها تفجأه على غرة وكان يظن أنه بمنجاة عنها فقد كان أشد كراهية للموت لأن حياته تقوم على الماديات البحتة فهو يتمنى طول الحياة، حيث لا أمل له في حياة أخرى ولا أمل له في حصيل نعيمها يود لو يعمر ألف سنة فيرى مصيره كذلك فيتحسر على فواتها، والخطاب للإنسان في قوله: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ) على طريق الالتفات – كما ذكرنا – لحكاية الكلام عن طلاقة قدرته (ﷻ) في خلقه للإنسان مع علمه (ﷻ) بما يدور في خلد الإنسان ومكنون نفسه، وبيان أن نهايته بيده سبحانه وأنها حق لا مراء فيه مع اعتقاده أنه يحاول الفرار من هذه النهاية فأراد سبحانه أن يبين له ضعف حيلته وفساد معتقده فانتقل الكلام من حالة يتكلم فيه الله تعالى إلى حالة يخاطب بها هذا الإنسان الغافل اللاهي.

وقوله: (تَحِيدُ) استعارة تبعية حيث استعير الحيد للهرب والفرار لكراهية الموت أو لتجنب أسباب الموت، والمراد بـ (تَحِيدُ) تميل إلى جانب تبعده عن طرق الموت، والعدول عنها إلى سبيل يظن من خلالها النجاة.

وإنما جئ بقوله تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ) لإثبات العلم بجزئيات أحواله وتضمين شبه وعيد لهؤلاء إدماجاً والتخلص منه إلى بيان أحواله في الآخرة، ولأن قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ ...﴿٢٢﴾﴾ إلخ يناسب خطاب هؤلاء، وكذلك ما يعقبه على مالا يخفى.

قال الألوسي: "وقال الطيبي: إن كان قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ متصلاً بقوله سبحانه: ﴿...بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ (ق: ١٥) وقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ...﴿١٢﴾﴾ (ق: ١٢) فالمناسب أن يكون المشار إليه الحق والخطاب للفاجر، وإن كان متصلاً بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ فالمناسب أن يكون المشار إليه والخطاب للجنس وفيه البر والفاجر، والالتفات لايفارق الوجهين، والثاني هو الوجه لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ ﴿٢١﴾﴾ (ق:٢١) إلخ وتفصيله بقوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾ (ق: ٢٤)"(١).

وتقديم الجار والمجرور (مِنْهُ) على متعلقه للاهتمام بما منه الحياد وللرعاية على الفاصلة وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ معطوف على ما سبق من عطف الجمل الخبرية على بعضها، ومن هنا وجب الوصل بينهما، والمراد بالنفخ هنا النفخة الثانية، و(ٱلصُّورِ) وهو القرن أو البوق الذي ينفخ فيه إسرافيل نفخة البعث، والتعبير بـ (فِي) لاستقرار النفخ في هذا البوق فتتمكن النفخة فيه فيصل صداها إلى جميع المخلوقات فيصيبهم الفزع فيهرعون إلى عرصات القيامة للحشر والنشر والحساب.

والإشارة بـ (ذلك) مع ما فيه من معنى البعد لهول الموقف وتعظيم شأن هذا اليوم، وأنه يختلف عن أيام الدنيا كلها إذ هو بها جميعاً، والمراد: ذلك النفخ يكون وقت يوم الوعيد أو يوم إنجاز الوعيد الواقع في الدنيا أي يوم وقوع

(١) روح المعاني ١٨٢/٢٦.

الوعيد على حذف المضاف، على أنه عبارة عن العذاب الموعود ففيـه مجـاز عقلي لأن فعيلاً هنا بمعنى مفعول، وقيل: (ذلك) إشارة إلى الزمان المفهوم مـن (نفخ) فإن الفعل كما يدل على الحدث يدل على الزمان وتخـصيص "الوعيـد" بالذكر مع أنه يوم الوعد أيضاً لتهويله، ولذلك بدئ ببيان حال الكفرة([1]).

(١) أبو السعود/٨/١٢٩.

المبحث الثاني

مقامات الحديث عن نبي الله موسى (عليه السلام)

وفيه ثلاثة مقامات

الأول: مقام الحديث عن مجاورته غربي الجبل. والمجاور، والثاوي رسول الله (ﷺ).

الثاني: مقام الحديث عن كونه ثاوياً في أهل مدين.

الثالث: مقام الحديث عن كونه بجانب الطور.

"المقام الأول" مقام الحديث عن مجاورته (ﷺ) جانب الجبل الغربي.

بعد أن ذكر الله تعالى منّته على نبي الله موسى (عليه السلام) أن الله قد أتاه التوراة بعد أن أهلك الأمم السابقة عليه وهم أقوام نوح وعاد وثمود ولوط وغيرهم من المكذبين لرسلهم، وأنه سبحانه جعل هذا الكتاب ضياءً لبني إسرائيل ونوراً لقلوبهم يبصرون به الحقائق ويميِّزون به بين الحق والباطل، انتقل إلى خطاب نبينا محمد (ﷺ) بأنه لم يكن موجوداً بجانب الجبل الغربي، وهو المكان الذي كلم الله تعالى به موسى وحين أوحى إليه أمر النبوة وإرساله إلى فرعون وقومه، وما كان من الحاضرين في ذلك المكان، ولكن أوحى الله إليه ذلك ليكون حجة وبرهاناً على صدقك.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾(١).

---

(١) القصص/٤٤.

النظم البلاغي:

قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ شروع في بيان أن إنزال القرآن الكريم أيضاً واقع في زمان شدة مساس الحاجة إليه واقتضاء الحكمة له البتة، وقد صدر بتحقيق كونه وحياً صادقاً من عند الله (ﷻ) ببيان أن الوقوف على ما فصل من الأحوال لا يتسنى إلا بالمشاهدة أو التعلم بمن شاهدها، وحيث انتفى كلاهما تبين أنه بوحى من علام الغيوب لا محالة، ومفهوم الجملة، ماكنت بجانب الغربي أو المكان الغربي الذي وقع فيه الميقات على حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه أو الجانب الغربي على إضافة الموصوف إلى الصفة كمسجد الجامع وفى الآية ما يعرف في البديع بالمذهب الكلامي، حيث بني الاستدلال على انتفاء كون النبي (ﷺ) موجوداً في المكان الذي قضى الله فيه أمر الوحي إلى موسى، لينتقل منه إلى أن مثله ما كان يعلم ذلك إلا عن مشاهدة لأن طريق العلم بغير المشاهدة له مفقود منه ومن قومه إذ لم يكونوا أهل معرفة بأخبار الرسل كما كان أهل الكتاب، فلما انتفى طريق العلم المتعارف لأمثاله تعين أن طريق علمه هو إخبار الله تعالى إياه بخبر موسى (عليه السلام) ولما كان قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ نفياً لوجوده هناك وحضوره تعين أن المراد من ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أهل الشهادة، أي الخبر اليقين، وهم علماء بني إسرائيل لأنهم الذين أشهدهم الله على التوراة وما فيها، ألا ترى أنه تعالى قد ذمهم بكتمهم بعض ما تتضمنه التوراة من البشارة بالنبي (ﷺ) بقوله: ﴿...وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ...﴿١٤٠﴾﴾(١)، والمراد: ماكنت من أهل ذلك الزمن ولا ممن تلقى أخبار

(١) البقرة/١٤٠.

ذلك بالخبر اليقين المتواتر من كبتهم يومئذ فتعين أن طريق علمك بذلك وحي الله تعالى، والأمر المقضي هو أمر النبوة لموسى حيث تلقاها من الله تعالى([1]).

فلما بطلت شبهتهم التي حاولوا بها إحالة رسالة محمد (ﷺ) نقل الكلام إلى إثبات رسالته بالحجة الدامغة، وذلك بما أعلمه الله به من أخبار رسالة موسى مما لا قبل له بعلمه لولا أن ذلك وحى إليه من الله تعالى، فهذا تخلص من الاعتبار بدلالة الالتزام في قصة موسى (عليه السلام) إلى الصريح من إثبات نبوة محمد (ﷺ).

وقوله: ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى﴾ جملة ظرفية متعلقة بالجار والمجرور، والمراد بالقضاء هنا العهد والإحكام على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية لأن القضاء إبرام حكم أو عهد وفيه زيادة عناية بما عهد ففيه قطع بإبرام عهد لا رجعة فيه ولا نكوص عنه فيستخدم لتقوية أمر المعهود به وصبه في حوزة المعهود إليه فلا يمكنه الفكاك منه أو النكوص عنه، والأمر المقضي هنا هو أمر نبوته (عليه الصلاة والسلام) وإيتاؤه التوراة التي فيها حكم الله تعالى، والتي فيها الهدى والنور اللذان منحهما الله تعالى نبيه موسى (عليه السلام).

وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ معطوف على سابقه من عطف الجمل الخبرية على بعضها تثبيتاً للأحكام وزيادة بيان لها، والمراد: من جملة الحاضرين للوحي إليه أو الشاهدين على الوحي إليه (عليه السلام) وهم السبعون المختارون للميقات حتى تشاهد ما جرى من أمر موسى في ميقاته فتخبر به الناس، فالشاهد من الشهادة إما بمعنى الحضور أو بمعناها المعروف.

---

(١) أبو السعود ١٥/٧، ١٦، روح المعاني ٨٥/٢٠، ٨٦، التحرير والتنوير ١٢٩/٢٠، ١٣٠.

قال الإمام الفخر: (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ) ثبت أنه لم يكن شاهداً، لأن الشاهد لابد أن يكون حاضراً. فما الفائدة في إعادة قوله: (وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ)؟

الجواب: قال ابن عباس (رضي الله عنهما) التقدير: لم تحضر ذلك الموضع، ولو حضرت فما شاهدت تلك الوقائع فإنه يجوز أن يكون هناك، ولا يشهد ولا يرى"(١).

واستشكل إرادة المعنى الأول بلزوم التكرار فإنه قد نفى الحضور **أولاً:** في قوله تعالى: (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ) وكذا إرادة المعنى **الثاني:** بلزوم نحو ذلك لما أن نفى الحضور يستدعى نفى كونه من الشاهدين بذلك المعنى، ومن هنا قيل: المراد من الأولى نفى كونه (عليه الصلاة والسلام) من جماعة جئ بهم ليحضروا فيطلعوا على ما يقع هناك لموسى (عليه السلام) لأن المراد بـ (ٱلشَّٰهِدِينَ) جماعة معهودون كان حالهم ذلك، وقيل: المراد بالشاهدين الملائكة (عليهم السلام) فقد جاء الشاهد اسماً للملك فكأنه قيل: ما كنت حاضراً بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى أمر نبوته بالوحي وما كنت من الملائكة الذين ينزلون ويصعدون بأمر الله تعالى ووحيه إلى أنبيائه (عليهم السلام) ولهم من الاطلاع على الحوادث ما ليس لغيرهم من البشر حتى يكون لك علم بما وقع لموسى (عليه السلام) فتخبر به الناس وهذا كله من باب الكناية وهى نفى صفة الشهادة عنه (ﷺ) وعلى هذا فهى كناية قريبة لعدم كثرة الوسائط بين طرفيها.

---

(١) التفسير الكبير ٢٤/٢٥٨.

وقيل: المراد وما كنت من الشاهدين ذلك الزمان فيكون نفياً لحضوره ومشاهدته ذلك الزمان وهو أعمُّ من أن يكون بجانب الغربي أو بغيره، وحاصله نفى الوجود العيني حينئذ وهذا من قبيل الترقي في النفي.

المقام الثاني: مقام الحديث عن نفى كونه ثاوياً في أهل مدين.

بعد أن نبه (ﷻ) على برهان نبوة محمد (ﷺ) حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كأن سامعه شاهد وراء لما تقدم، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئاً من الكتب، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك، ونفى سبحانه حضوره بجانب الجبل الغربي الذي أوحى الله تعالى به إلى موسى (عليه السلام) ما أوحى ولم يكن (ﷺ) شاهداً لذلك أعاد الله حديثه بأنه خلق أمماً وأجيالا من بعد موسى تطاول عليهم الزمن، وطالت الفترة فنسوا الله وذكره، وبدلوا شرائعه وحرفوها فأرسلناك يا محمد لتبعث أمر الدين وتجدده.

قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾(١).

النظم البلاغي:

قوله تعالى: (وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا) استدراك على ما سبق، أي: ولكنا خلقنا بين زمانك وزمان موسى قروناً كثيرة فتطاول عليهم الزمن وتمادى الأمد فتغيرت الشرائع والأحكام وعميت عليهم الأنباء لاسيما على آخرهم الذين أنت فيهم فاقتضت الحكمة التشريع الجديد وقص الأنباء على ماهي عليه فأوحينا إليك

(١) القصص/٤٥.

وقصصنا الأنبياء عليك فحذف المستدرك وهو أوحينا اكتفاءً بذكر مـا يوجبـه ويدل عليه من إنشاء القرون وتطاول الأمـد.

قال العلامة الزمخشري: "فإن قلت كيف يتصل قوله: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ بهذا الكلام ومن أي وجه يكون استدراكاً له؟ قلت: اتصاله به وكونه استدراكاً له من حيث إن معناه: ولكنا أنشأنا بعد عهد الوحي إلى عهدك قروناً كثيرة"(١).

فكأنه هنا قد خفى اتصال هذا الاستدراك بالكلام الذي قبله وكيـف يكـون استدراكاً وتعقيباً للكلام الأول برفع ما يتوهم ثبوته. فكان قولـه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ... ﴿٤٣﴾﴾ (٢) مسوقاً مساق إبطال تعجب المشركين من رسالة محمد (ﷺ) حين لم يسبقها رسالة رسول إلى آبائهم الأولين، فذكرهم بأن الله أرسل موسى كذلك بعد فترة عظيمة، وأن الذين أرسل إليهم موسى أثاروا مثل هذه الشبهة فقـالوا: ﴿...وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾(٣) فلما كانت رسالة موسى (عليه السلام) بعد فترة من الرسل، كذلك كانت رسالة محمد (ﷺ) فالمعنى: فكان المشركون حقيقيين بـأن ينظـروا رسالة محمد برسالة موسى ولكن الله أنشأ قروناً أي أمما بـين زمـن موسـى وزمنهم فتطاول الزمن فنسى المشركون رسالة موسى فقالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ ...﴿٧﴾﴾(٤) وحذف بقية الدليل وهو تقدير:فنسوا للإيجاز لظهـوره

(١) الكشاف ١٨١/٣.
(٢) القصص ٤٣.
(٣) القصص/٣٦.
(٤) ص/٧.

من قوله تعالى: (فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ) للإيجاز لظهوره، وفيه مجاز عقلي مراد به الأمم المخلوقة في تلك الأزمنة.

وقوله: (فَتَطَاوَلَ) بدل فطال من تفاعل لطول المدة التي بين الرسالتين أي بعدت بعداً شديداً حيث أخذت مدة بقاء موسى (عليه السلام) فيهم ثم مدة نبي الله عيسى (عليه السلام) ثم المدة البينية بين زمن عيسى (عليه السلام) وفترة انقطاع الوحي وانعدام الرسالات حتى مجئ محمد (ﷺ)، والضمير في (عَلَيْهِمُ) عائد إلى المشركين لا إلى القرون، ومن هنا يظهر لنا – كما ذكرت سابقاً – اتصال الاستدراك بقوله: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ) وأن ما بين ذلك وبين هذا استطراد(١). فذكر هنا سبب الوحي وهو طول الفترة ودل به على المسبب على سبيل المجاز المرسل.

وقوله: (فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ) استعارة مكنية شبه فيه الأمد بإنسان يحاول الارتفاع إلى الشئ ليعلوه بنظره ليراه لبعده ثم حذف المشبه به واستعير له شئ من لوازمه وهو التطاول، لارتفاع الزمن وطول مدته.

وقوله: (وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ) تكرير للدليل بمثل آخر، وهو نفى لا حتمال كون معرفته (عليه السلام) للقصة بالسماع ممن شاهدها أي وماكنت مقيماً في أهل مدين من شعيب والمؤمنين به، والمراد ماكنت مع موسى (عليه السلام) في وقت التكليم ولاكنت مقيماً في أهل مدين حين جاءهم موسى وحدث بينه وبين شعيب ما قصصنا عليك.

(١) الاستطراد هو: أن يخرج المتكلم من الغرض الذي هو فيه إلى آخر لمناسبة بينهما ثم يرجع إلى إتمام الأول.

والثواء هو الإقامة والاستقرار، والتعبير بحرف الجر (فِي) دلالة على تمكنه واستقراره في أهل مدين وكون إقامته فيهم لا في غيرهم حتى يأتيه خبر موسى وهؤلاء.

وجملة (تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ) فيها وجهان **الأول:** قال مقاتل: يقول لم تشهد أهل مدين فتقرأ على أهل مكة خبرهم. **الثاني:** قال الضحاك: يقول إنك يا محمد لم تكن الرسول إلى أهل مدين تتلو عليهم الكتاب وإنما كان غيرك([1]).

وهى جملة فى موضع الحال من ضمير (كُنتَ) وهى حال مقدرة لاختلاف زمنها مع زمن عالمها، والضمير في (عَلَيْهِمْ) عائد إلى المشركين من أهل مكة لا إلى أهل مدين لأن النبي (ﷺ) يتلو آيات الله على المشركين، والمراد بالآيات: الآياتُ المتضمنة قصة موسى في أهل مدين من قوله: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ...﴿٢٢﴾﴾([2]) إلى قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ...﴿٢٩﴾﴾([3]) وبمثل هذا المعنى قال مقاتل وهو الذي يستقيم به نظم الكلام، ولو جعل الضمير عائداً إلى أهل مدين لكان أن يقال: "**تشهد فيهم آياتنا**"([4]).

وقوله: (وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) استدراك آخر يبين أنه (ﷺ) ماكان حاضراً في أهل مدين حتى يعلم خبر موسى (عليه السلام) عن معاينة أو مشاهدة، ولكنا كنا مرسلينك بوحينا فعلمناك ما لم تكن تعلمه أنت ولا قومك من قبل هذا

---

(١) التفسير الكبير ٢٥٨/٢٤.

(٢) القصص/٢٢.

(٣) القصص/٢٩.

(٤) التحرير والتنوير ١٣٢/٢٠.

فأوحينا إليك هذه الآيات ونظائرها، وهذا الاستدراك كسابقه إلا أنه لم يقع فيه حذف، فلما انقطع الوحي واندرست العلوم وجب إرسالك إليهم فأرسلناك وكسيناك العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى (عليه السلام) كأنه قال: وما كنت شاهداً لموسى وماجري عليه ولكنا أوحينا إليك فذكر سبب الوحي الذي هو إطالة الفترة ودل به على المسبب على عادة الله (عز وجل) في اختصاراته"(١).

وعدل عن أن يقال: ولكنا أوحينا بذلك. إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ لأن المقصد الأهم هو إثبات وقوع الرسالة من الله للرد على المشركين في قولهم وقول أمثالهم.

﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ وتعلم رسالة محمد (ﷺ) بدلالة الالتزام مع ما يأتي من قوله: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ فالاحتجاج والتحدي في هذه الآية والتي قبلها تحد بما علمه النبي (عليه السلام) من خبر القصة الماضية(٢).

المقام الثالث: مقام الحديث عن كونه [ﷺ] ماكان بجانب طور سيناء.

بعد أن نفى الله (سبحانه وتعالى) وجود نبينا محمد (ﷺ) وجوده في الجانب الغربي من جبل سيناء، وعدم وجوده بين أهل مدين يتلقى من خلالها نبي الله موسى (عليه السلام) وحى الله بأمر نبوته وإبلاغه كتاب الله "التوراة" ودعوته لأهل مدين وغيرهم من قومه بني إسرائيل عاد الله (سبحانه وتعالى) لينفى وجود رسولنا (ﷺ) بجانب طور سيناء حين مناجاة الله لنبيه موسى (عليه السلام) ثم بين أن ما أوحاه إلى محمد (ﷺ)

(١) الكشاف ١٨١/٣، ١٨٢.

(٢) التحرير والتنوير ١٣٢/٢٠.

إنما هو رحمة منه سبحانه لينذر قريشا ومن على شاكلتهم من العـرب الـذين انقطع عنهم وحى السماء فلا وحى ولا أنبياء وهى الفترة المسماة عند العـرب بالعصر الجاهلي.

قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾(١).

النظم البلاغي:

قوله: (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ) جملة منفية معطوفة على سابقتيها زيادة فـي نفى كيوننته (ﷺ) موجوداً جانب طور سيناء حين نداء الله نبيـه موسـى (عليه السلام) لعدم وجود محمد ليس في المكان المشار إليه فحسب بل لم يكن قد ولد أساسـاً فهو إخبار وإبلاغ له (ﷺ) ولقومه حتى لا يكون هناك منزع لنفس تظـن أنـه اختلق هذه القصة من بنات أفكاره أو من عنديات نفسه بل هو وحى أوحـاه الله إليه وصفه الله بكونه رحمة منه سبحانه نذارة لقوم لم تسبق لهم هـذه النـذارة، وأطلق سبحانه جانب الطور وخصه لكونه هو الجزء الخاص الذي تمـت فيـه المناجاة بين الله تعالى وبين نبيه موسـى (عليه السلام) مـن قبيـل إطـلاق الجـزء الأشرف وإرادة الكل بدليل ذكر الطور كله في سورة التين حيث قال تعالـى: ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ ﴾(٢)

(١) القصص/٤٦.

(٢) سورة التين/٢.

وقال عن ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ ... ﴿٢٠﴾ ﴾(١) وهي الشجرة المباركة التي ذكرتها سورة القصص في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ... ﴿٣٠﴾ ﴾(٢).

و (إِذْ نَادَيْنَا) جملة ظرفية على حذف المضاف أي وقت ندائنا موسى (إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) واستنبائنا إياه وإرسالنا له إلى فرعون، وجانب الطور هو الجانب الغربي، وهو الجانب الأيمن المتقدم وصفه بذلك الوصفين، فعرى عن الوصف هنا لأنه صار معروفاً، وقيد الكون المنفي بظرف (نَادَيْنَا) أي بزمن ندائنا.

وحذف مفعول النداء من (نَادَيْنَا) لظهوره أنه لنبي الله موسى (عليه السلام) من قبل الله تعالى وهو النداء لميقات أربعين ليلة وإنزال ألواح التوراة عقب تلك المناجاة، وكان ذلك في جانب إذ كان بنو إسرائيل حول الطور، وهو نفس المكان الذي نودي فيه موسى للمرة الأولى حال رجوعه من ديار مدين، والنداء هنا في قوله (نَادَيْنَا) غير النداء الذي ورد في قوله تعالى: (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ) لئلا يكون تكراراً.

وهذا الاحتجاج بما علمه النبي (ﷺ) من خبر استدعاء موسى (عليه السلام) للمناجاة وتلك القصة لم تذكر في هذه الآية هنا، وإنما ذكرت في الأعراف في قوله: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ... ﴿١٤٣﴾ ﴾(٣).

---

(١) المؤمنون/٢٠.

(٢) القصص/٣٠.

(٣) الأعراف/١٤٣.

قوله: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ جملة اعتراضية بين قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ وقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ جئ بها لمجرد الاستدراك وهذا الاستدراك ناشئ عن دلالة قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ على معنى: ماكان علمك بذلك لحضورك، ولكن كان علمك رحمة من ربك لتنذر قوماً.

و"لكن" هنا بسكون النون باتفاق القراء فهى حرف لا عمل له فليس حرف عطف لفقدان شرطيه: تقدم النفي أو النهى، وعدم الوقوع بعد واو العطف فحرف "لكن" هنا لمجرد الاستدراك لا عمل له وهو معترض والواو اعتراضية.

و"رحمة" منصوبة للإذن بأنه معمول لعامل نصب مأخوذ من سياق الكلام: إما على تقدير كون محذوف يدل عليه نفى الكون في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ والتقدير: ولكن كان علمك رحمة منا، وإما على المفعول المطلق الآتي بدلاً من فعله والتقدير: ولكن رحمناك رحمة بأن علمناك ذلك بالوحي رحمة بقرينة ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾.

ويجوز أن يكون ﴿رَّحْمَةً﴾ منصوباً على المفعول لأجله معمولاً لفعل "لتنذر" فيكون فعل "لتنذر" متعلقاً بكون محذوف هو مصب الاستدراك وفى هذا التقدير توفير معانٍ، وذلك من بليغ هذا الإيجاز وأدقه.

والالتفات إلى اسم الرب في قوله: ﴿رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ بالإظهار في مقام الإضمار للإشعار بأن معنى الرب المضاف إلى ضمير المخاطب من العناية به عناية الرب بالمربوب، وللإشعار بأن ذلك من أثار الربوبية وتشريفه (عليه السلام) بالإضافة.